لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء الثالث والعشرون: تفسير الآَيات ٣٠ - ٤٧ من سورة يس

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

– هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

– الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثالث والعشرون من سلسلة اللقاءات في هذا الشهر المبارك، نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من المقبولين ممن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، وقامه إيمانًا واحتسابًا، وقام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا.

والإيمان هو الذي نبدأ به ونختم، وهو مقصودنا ونحن نقرأ القرآن ونصلي وندعو، من أجل أن يتم لنا وهو الذي يتمم للخلق مقاصدهم، من أجل أن يتم لنا مقصودنا من هذه العبادات كان الواجب علينا أن نعتني بالإيمان، فلا يقبل صيام رمضان ولا قيامه ولا قيام ليلة القدر إلا إذا تحقق الشرط، والشرط إيمانًا واحتسابًا.

ومن السور التي تبني الإيمان وتجعله متينًا في القلب: سورة يس.

- وقد قال عنها السلف: "هي قلب القرآن"، أما حديث فلا يصح، يعني لا يصح تسميتها أو وصفها قلب القرآن من جهة النبي صلى الله عليه وسلم، إنما هذا من الكلام الذي تداوله السلف.

والسبب ظاهر في كونها قلب القرآن: لأن من تقاسيمها تتشعب مواضيع القرآن، وكما ذكر بعض المفسرين فقال: "من تقاسيمها تتشعّب شرايين القرآن كله، وإلى وتينها ينصبّ مجراها".

فإن فيها من الأخبار والشؤون والأمور التي تقوّي الإيمان في القلب، فبهذه السورة دلائل التوحيد مشوبة بالامتنان بواجب الشكر على النعم، مشار إلى أن الشكر لا يكون إلا بالتقوى والإحسان وترقّب الجزاء، فالشاكر تقيّ محسن ينتظر الجزاء من الله.

- وفي السورة طريق لو سلكه العبد، خرج من قلبه كل شرك، طريق لو سلكه العبد، حرّك فطرته، وعاد عدوّه الشيطان واتّبع دعاة الخير.
- في السورة تعظيم للقرآن، فهذه السورة إذن قامت على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه:
  - إثبات الرسالة والوحي، ومعجزة الوحي.
  - إثبات كمال صفات الله واستحقاقه للتوحيد.
  - إثبات القدر والحشر إلى الله.
  - وفي ضمن هذا ترى أمرًا عجيبًا: تنقّلات لطيفة في السورة، أسئلة مثيرة يُثار ذهن السائل ويؤمر بأن يتفكّر ويتدبّر، فلذلك تصلح أن تكون هذه السورة منهجًا للتفكّر.

إذا أراد الإنسان أن يدرّب نفسه على التفكر أو يدرّب من تحت يده، فليجعل هذه السورة منهجًا بين عينيه.

هذه السورة العظيمة بدأت بالثناء على القرآن بذكر الحروف المقطّعة ﴿يسٓ﴾ والقول فيها كالقول في الحروف المقطعة في أوائل السور، أنها إشارة إلى التحدّي، وأنّ المقصود أن هذا القرآن من حروف عرفتها العرب فلتأتِ بمثلها من كلمات.

ومن الناس من يدّعي أن (يس) من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس صحيحًا، وربما الذين يسمون يس معتمدين على قول الله في سورة الصافات (سلام على آل يس) وهذا شأن آخر.

ثم أتى الثناء ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فاجتمعت في مطلع السورة الأمور العظيمة:

- القسم بالقرآن، كناية عن شرف قدره وتعظيمه عند الله.
- الإشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم من المرسلين، وهذا جواب القسم.

- و ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هذا إشارة إلى عظمة الشريعة بعد إثبات أنه مرسل كغيره من الرسل.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهذا إشارة إلى أن هذا المنزل الذي هو القرآن من عند الله الذي وصفه أنه عزيز رحيم، وترى آثار عزته في أفعاله، وترى آثار رحمته في أفعاله.

لكن الناس عطّلوا عقولهم وفطرهم عن رؤية آثار عزته ورحمته، فما اعتبروا بالأمم التي سبقت، ولا اعتبروا بالعطايا التي ينعم الله بها على الخلق، فما كان منهم إلا أن عطلوا فطرهم وعقولهم.

فالمقصود أن تكون ذا نباهة وفهم، وتكون على حذر من أن تعطّل عقلك المفكّر، وفطرتك السوية، فتمرّ عليك من الأحداث، وتمرّ عليك من الأحوال ما ينفعك ويوقظك وأنت في غفلة.

ولذلك في السورة يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ أن هذا زمان الحسرة والتعجب. ثم بيّن سبب الحسرة والندامة.

الله عزّ وجلّ قد نبههم وأعطاهم كل طريق يوصل به إليه، لكن يا للعجب! لم ينتفعوا بهذا الطريق.

كن على حذر من أن تكون من أهل الحسرة في يوم لا ينفع فيه الندم ولا الحسرة، كن على حذر ممن يجرّك إلى هذه الحسرة، ومن الأحوال التي تجرّك إلى هذه الحسرة، فإن المتحسّرين في ذاك اليوم لا ينفعهم تحسّرهم، ولا يفيدهم شيء، فشدّة الندم بعدما يفوت الأمر ما هي إلا حرقة ما تنفع صاحبها، لكن شدّة الندم على ذنب أذنبته في الدنيا ينفعك الله به، إن كان يدفعك إلى التوبة.

ما السبب الذي يأتي بالحسرة؟ ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ **السبب الذي يأتي بالحسرة**: الاستهزاء بالرسل.

والنجاة: أن تستعمل عقلك وفكرك وفطرتك فتنجو ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾؛ بمعنى أن الإنسان عليه أن يتفكّر ويرى، تستهزؤون بأي شيء وأنتم تعلمون أن عاقبة الاستهزاء بالرسول كما مضى كانت هلاك المستهزئين! ألا تقرؤون التاريخ؟! فعدم اعتبار كل أمة بالأمم التي قبلها يثير الحسرة عليها وعلى نظائرها، وهكذا فيمن خالف سنة النبي صلى الله عليه وسلم في كل شأن من شؤونه، ولا يستفيد من التأمّل في حال من خالفوا الرسول واستهزؤوا بأوامره فهلكوا، فيعيد الناس كل زمن نفس الحالة التي مرت.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ، هلكوا فهم لا يعودون، لا رجوع للدنيا، لا رجوع إلى الأهل والأحباب، وهذا يزيد الحسرة اتضاحًا، فإذن انظروا إلى هذه الحال وكونوا محترسين من الحسرة .

إذن هؤلاء لن يعودوا إلى الدنيا ماذا سيحصل لهم؟ ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ كلهم جميعًا سيجتمعون لدينا محضرون، أين سيجتمعون؟ سيجتمعون عند ربهم محضرين للحساب والجزاء والعقاب!

ثم تأتي الآية بعد الآية ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ألا تنظرون إلى الأرض الميتة وَصِفَتُها كيف أحياها الله؟ فالذي أحياها وأخرج منها حبًّا هو الذي يخرجكم من الأرض، وهو الذي يعيدكم كما كنتم، فالأرض الميتة يعني جافة ما فيها حياة ما فيها نبات، وإحياؤها خروج النبات منها، وهكذا الخلق يكونوا غيّبوا تحت الأرض، أكلتهم الديدان، وذهبت بأبدانهم ، ثم الله عزّ وجلّ يعيدهم مرة أخرى.

وذكر الله عزّ وجلّ من هذه الآية بالتفصيل في مسألة الإخراج مشيرًا إلى اليوم الآخر، ومشيرًا أيضًا إلى نعمه ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ

﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ إذن هذه إشارات إلى ما أنعم الله به على الخلق وهم لا يد لهم فيها، لا يد لهم فيما رُزقوا، فتصبح (ما) نافية في (وما عملته أيديهم)، بمعنى وما عملت أيديهم شيئًا من ذلك.

وهناك قول أن (ما) هنا موصولة كما يفهم الناس، يعني ليأكلوا من ثمر ما أخرجناه ومن ثمر ما عملته أيديهم، فيكون الإشارة إلى أي شيء؟ يكون الإشارة إلى أن الله علّم الناس كيف يسقون وكيف يتعاهدون.. إلى آخره.

لكن الذي يظهر أن (ما) نافية، والمعنى أقرب أن تكون نافية والسبب أنه في سياق تعداد نعم الله عزّ وجلّ عليهم التي ليس لهم يد فيها.

﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ إذن الله عزّ وجلّ يستحقّ الشكر فكيف يستمرون على الكفر؟! على كفر النعمة وعلى الكفر الأكبر، وهذا دليل واضح على أن كفر النعمة مبدأ الكفر الأكبر، يعني يبدأ الكفر الأكبر بإنكار حق الله بكفر النعمة.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بعد ما ذكر إحياء الأرض وإخراج الحب والشجر وما فيها من بديع صنع الله من تأمّله بقلب صافٍ مستسلم للفطرة، وعقل صافي بعيد عن الفكر الباطل، سيرى عجبًا، ولابد أن يذكره بعظمة الله الصانع لهذه الأشياء بحكمته سبحانه وتعالى.

وهنا أمر آخر ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ المقصود به كل ما يطلق من الذكر والأنثى سواء كان من الإنسان أو الحيوان، هذا إطلاق، ويطلق أيضًا الزوج على معنى الصنف، فالله عزّ وجلّ الذي خلق الأزواج كلها يعني الأصناف كلها ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ طه: ٥٣، لكن أكثر ما يستخدم في الذكر والأنثى، فيظهر أن هنا أحد الإشارات أن الله خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون.

مما تنبت الأرض: يعني هذا دليل أن هذه الأرض هي مبدأ الخلق؛ لأنها الأسبق في تكوين بني آدم، وأن هذه الأبدان تقوم على ما رزقنا الله من الأرض.

ومن أنفسهم ومما لا يعلمون: هذه إشارة إلى أسرار عظيمة موجودة في خلق أنواع الحيوان هي التي ميزت الذكر عن الأنثى، وهي التي ميزت الناس بعضهم عن بعض، وميزت أنواع الحيوانات بعضها عن بعض، فهذا كله يجعل العبد يعلم أنه كلما زاد تفكّرًا في هذه المخلوقات، ظهرت له أسرار خفية، وتبقى هناك أسرار وأسرار! وكلها إن صحّ عقل العبد زاده إيمانًا.

ونحن نرى أنه كلما زاد بُعد الناس عن الدين، كشف الله لهم -بسبب التجارب والاكتشافات- شيء من أسرار الحياة، من أسرار الخلق، يدعوهم بهذا الشيء الذي يكتشفونه إلى الإيمان. أما من سلم قلبه من اللوثات، فإنه ينتفع من هذه الاكتشافات، وأما من خالط قلبه الكفر والعناد، فإن مثل هذه الأمور لا تنفعه وهو في غاية الإصرار على ما تحمّل من اعتقادات.

فإذن معنى هذا أن المطلوب منا أن نغذّي عقولنا بما يزيدنا إيمانًا، ويكون لنا فيه عبرة، فانظر إلى مخلوقات الله واجعلها شاهدة على عظمة الله، وزد بذلك توحيده وتعظيمه سبحانه وتعالى.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ وهذه الآية الجديدة انتقال إلى العوالم العلوية التي تدلّ على دقيق نظام الخلق، ابتدئ منها بنظام الليل والنهار وهذا شيء متكرر الوقوع أمام من يشاهد، والسلخ: إزالة الجلد عن الحيوان، فكيف نسلخ منه النهار؟

كأن الأصل الليل، ماذا يحصل للنهار؟ يسلخ النهار، صار المعنى الليل آية لهم، متى؟ لما ترى النهار قد زال، فيبقى عليهم الليل، فأصبح كأن هناك تشبيه:

الليل بمنزلة جسم الحيوان، المسلوخ منه جلده، والنهار هو الجلد، يعني لما يأتي الليل كأنه حيوان سُلخ جلده، فإذا بقي الليل إذن بقي الجسم المسلوخ، لما يطلع النهار هذا كأنه الجلد، من هنا نفهم أن الظلمة هي الحالة السابقة للعالم قبل خلق النور. الظلمة هي عدم النور، فالأساس الظلام، والنور هذا مثل اللباس، فقبل أن يخلق الله الكواكب النيّرة والشمس، وقبل أن تستقبلها الأرض كان كل شيء في ظلمة،

فهذه آية عظيمة (حال زوال نور النهار عن الأفق، فيزول يزول النهار ، يزول الضوء، فكل مكان يزول عنه الضوء يصبح فيه ظلمة، فكأن هذا النهار كأنه الجلد ينسلخ رويدا رويدا عن الجسم).

يقول الله ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ يعني ماذا يحصل لهم؟ يصبح الخلق في ظلمة.

من الآيات أيضًا: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وهذا معطوف على آية الليل، فكما تفكر في الليل والنهار فكر في الشمس وجريانها، واعلم أن ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وهذه الآية العظيمة -آية الشمس- علينا أن نكثر من التفكّر فيها؛ لأنها من أعظم الآيات التي أشير إليها في القرآن وكُرّرت الإشارة إليها، ولنعلم كما ورد في الحديث في صحيح البخاري ومسلم:

((أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟)) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا)). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ((أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ذَاكَ؟ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا))[1].

إذن هذه الآية العظيمة لما ننظر إليها لابد أن نستحضر هذا الحديث الواضح في دلالته، ما دلالة هذا الحديث؟ أن الشمس تجري حتى تنتهي إلى مستقرها، أين؟ تحت العرش، هذا متى؟ كل يوم تغرب فيه

[1] رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

الشمس عنك تجري إلى مستقرها، فإذن أين تذهب الشمس لما تغرب؟ ما هو الجواب الذي ستقوله؟ تنتهي إلى مستقرها تحت العرش.

لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا: لأنها تشرق من نفس المكان، فما يستنكرون، وهي مأمورة، تجري لمستقرها.

((حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا)) ففي ذاك الوقت سيكون شروق الشمس من مغربها.

المقصود أن هذه من عقائدنا التي نحملها تجاه الشمس، والتي نلقّنها ذرارينا بنفس هذه الطريقة التي هي ((أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ)) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا تأويل هذه الآية العظيمة ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾.

﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ فكما أن الشمس آية، فكذلك القمر آية عظيمة من الآيات، قدّره الله بنظام محكم، فله مقدار عجيب بها يقدّرون الناس أحوالهم، فإن الله قدّر للشمس والقمر نظام يسيرون عليه لا يتغيّر، لا يتغير بمعنى هذه الكلمة، به انتفع الناس بحساب الفصول السنوية والأشهر والأيام والليالي، فهذا أمر لابد أن يثير الذهن، لابد أن تكون مثل هذه الأمور التي تعاد وتتكرر علينا مثيرة لنا، لا ننظر لها نظر الغافلين، بل نظر المعتبرين، ندرّب نفسنا على ذلك وندرب أبناءنا، لذلك نقول سورة يس تصلح أن تكون منهجًا للتفكّر.

﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ له منازل ينزلها، المنازل هذه معروفة، يبتدئ ضوؤه هلالاً، يأخذ في الازدياد ليلة فليلة، ثم يأخذ في التناقص ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ حتى عاد يعني حتى صار، كالعرجون القديم: أي شبيهًا به. صار شكله للرائي كالعرجون، ما هو العرجون؟ العود الذي تخرجه النخلة فيكون الثمر في منتهاه، وهو الذي يبقى متصلا بالنخلة، وهو المكان الذي يجتمع فيه أعواد التمر، والقديم هو البالي، لأنه إذا انقطع التمر منه يتقوّس تقوّسًا ويصفر ويتضاءل، فأشبه صورة ما يواجه الأرض من ضوء

القمر في آخر ليالي الشهر وفي أول ليلة منها بأي شيء؟ بهذا العرجون القديم؛ فالضوء الذي يكون ليلة المحاق يعني من اليوم الثاني من الليلة الثاني من المحاق يشبه هذا. يعرف هذه الصورة تمامًا أهل النخل، ويمكن بتداول الصور تتصور العرجون القديم

هذه الصور العجيبة التي صوّرت تحتاج منا تدبر تفكر، (كالعرجون القديم) فكر ما هو؟ ابحث عنه، تصور صورته، كل هذه قربة.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ الآن سمعت عن الليل والنهار وسمعنا عن الشمس والقمر، فهذه كلها أدلة على انفراده تعالى بالخلق والتدبير، وعلى صفاته –صفات كماله–، فانظر إلى قدرته بآية الشمس وسيرها، وانظر إلى قدرته بآية القمر وسيره، انظر إلى هذا وانتفع به، وانظر إلى دقّة سير هذا وهذا، ويزيد الأمر عبرة بأنّ سير الشمس لا يلاقي سير القمر، والقمر سيره لا يلاقي سير الشمس، ولا يمر أحدهما بطريق الثاني، فمن يمسكهما؟

في مقابل لو نظرت لهما في ليالي في صبيحة بعض الأيام يمكن أن ترى القمر بعد شروق الشمس، فترى القمر وترى الشمس، تراهم أنت في الجو مع اختلاف حجميهما، لكن أتظن أنهما متقاربين؟ أبعد ما يكونون! فالشمس في فلك بعيد ، والقمر أقرب منها بعينك قد تراهم يلوحون متقاربين، وكل منهما له نظامه وله سيره، لا يمكن أن يلحق هذا هذا، ولا العكس، (كل في فلك يسبحون).

فسبحان من خلقهم وجعلهم آية ، ويا حسرة على من غفل عن هذه الآيات!

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فانسلاخ النهار على الليل أمر مسخّر، فالليل لا يستطيع أن يتخلف ويسبق النهار، فهذا كله تقديرات قدرها الله عزّ وجلّ أين عنها الخلق وأين هم عن أدلتها؟

إذن (وآية لهم الأرض الميتة)، (وآية لهم الليل) والآن نأتي لآية ثالثة:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ وهذه أحد العجائب التي يعيشها الناس، يعني الله عزّ وجلّ عدّ آيات في الأرض، عدّ آيات في السماء، الآن يعدّ لنا آيات في البحر، وكل هذه الآيات تجمع بين أمرين: بين المنة والعبرة، لا تنسَ هذا.

يمتنّ الله علينا بنعمه والنعم نفسها عبرة لنا، فنحن انشغلنا عن الأمرين عن المنة وعن العبرة، نشعر أنه طبيعي الشمس تخرج، ولازم تخرج، ولا نفكر في المصالح التي تعود من وراء الشمس، ومثلها في القمر ومثلها في الليل والنهار، ومثلها في كل شيء، يعني ما نفكر أن نثني على الله بفعله في الشمس والقمر، بل يمكن أن يتداول بعضنا مشاعر كراهية الشمس مثلا لأنها محرقة! ممكن أن تأتي هذه المشاعر، وممكن هذه المشاعر تتولد عند الأبناء، فلما نأتي نقول لأحد: تفكر في الشمس، يقول ما أجد في قلبي شعور لها إلا البغض، وهذا طبعا مما يدلّ على فساد القلب! غفلة وفوقها غفلة وفوقها غفلة! نعوذ بالله من حال أهل الغفلة.

الآن الآية التي نتأملها هي آية الفلك، وهذه آية عظيمة اشتهرت حتى كانت كالمشاهدة عند الناس، المقصود أن إلهام الله لنوح عليه السلام صنع السفينة كان أمر معروف عند الناس يتداولونه ويتناقلونه.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ فتسخير الفلك أنها تسير على الماء، وتسخير الماء لتطفو عليه دون أن تغرق هذه آية عظيمة بنفسها، وأيضا من المنّة هنا أن نذكر الناس بإلهام نوح لصناعة الفلك وأنهم حُملوا عليه وبقوا بعده.

إذن الآية هنا صُنع الفلك فحُملت فيه الذُّرِّيَّات وحصلت لهم بذلك النجاة ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ يعني أنجيناكم من الغرق، لسنا نحن نفسنا! نقول هذه الذرية وهو نسل الإنسان، والفلك المشحون هذا الفلك الذي عُهد وعُرف في قصة الطوفان.

فامتنّ الله علينا بنفس الفلك، وامتنّ علينا بالنجاة، فإن الذراري نجت بنجاة وصول الخلق بعدما أغرق الله كل أهل الأرض إلا القليل الذين آمنوا.

كما أتى في سورة الحاقة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ الحاقة: ١١ - ١٢ يتذكرها الخلق.

المقصد أن هذه المنة العظيمة على الخلق أن يتناقلوها ويحكي بعضهم بعضا ويذكّر بعضهم بعضا بنعمة الله.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ يعني هذه آية غير آية البحر، بمعنى أن هنا تذكير بخلق الإبل الصالحة للأسفار، فكانت الأولى الإلهام بصنع الفلك من حيث الحكمة العظيمة في الإلهام وتسخير البحر والحفاظ على النوع الإنساني، وهنا يأتي أمر آخر لا يد للإنسان فيه أبدا وهو اتخاذ الرواحل، يركبونها فتقطع بهم الرمال، فالله عزّ وجلّ جعل الفلك صالحًا لمخر البحار، وجعل الرواحل قادرة على قطع الرمال، ومما اشتهر أن العرب كانت تقول عن الرواحل: سفائن البر، فهي كالسفينة في البر، فهذه من النعم التي نتذكرها، أن الله حملنا في الفلك، حملنا على هذه الدواب، حملنا على ما نحمل عليه اليوم، وهو سبحانه وتعالى الممتنّ على خلقه بذلك كما ورد في سورة النحل، فمن نظر إلى منته العظيمة، كان الواجب عليه الشكر وليس الكفر، وكان الواجب عليه الإيمان وليس الإعراض عن طريقه سبحانه وتعالى.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ يعني حمل الذرية في الفلك، وامتنّ على الخلق بهذه الفلك التي تجري، فلو شاء لأغرقهم جميعا وذهبوا، فلا يجدون صريخا يصرخون فيغيثهم ولا أحد ينقذهم من أمر الله.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ إذن هذه هي الحقيقة أن الله عزّ وجلّ مدّ في أعمار الخلق وأعطاهم من أجل أن يكونوا أهلا لطاعته، وهذا من آثار رحمته ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، فلا تكن ممن تمتع إلى حين وترك النعيم المقيم، وامتثل الأمر بالتفكر، وانتفع مما نشره الله حولك من آيات .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ تنتهي القضية عندهم بأي شيء؟ بأنهم لا ينتفعون بالآيات الدالة على وحدانية الله، لا ينتفعون بالقرآن والموعظة والتذكير، لاينتفعون بما حلّ للأمم قبلهم، وهكذا نجدهم أنه يمرّ بين أيديهم أحوال الأمم في الدنيا، ومن خلفهم من سبقهم في التاريخ ولا ينتفعون.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فما أسوأ هذه الحال ويا حسرة على هؤلاء العباد! كم أحسن الله إليهم بإظهار الآيات، وكم أساؤوا إلى أنفسهم بالإعراض! وأعظم ما فيهم من سوء أنهم يحكمون عقولهم على خبر ربهم، فنسمع هذه الآية الأخيرة في السياق بالنسبة لنا ونفهم هذه الدلالة.

يعني الآن آيات تُعرض عليهم يتركوها، يتركوها إلى أي شيء؟ إلى عقولهم! وانظر إلى مناقشتهم لعقلهم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ هذه أحد الأوامر والطلبات التي أمروا بها ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ يعني انظري إلى عقولهم يفكرون بعقولهم يحكموها في الشرع ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

المؤمنين يقولون لهم ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الله الذي رزقكم، فيكون ردّهم ردّ من استعمل عقله في غير مكانه، فكأنهم يقولون: الله رزاق، فنطعم من لو يشاء الله أطعمه! إذا هذا رزق الله فلماذا لا يرزقهم؟! لو شاء الله لأطعمكم كما أطعمنا! فهم يضعون صفات الله في الموطن الذي يريدونه بعقولهم، نحن ربنا أطعمنا، تقولون أن ربنا أطعمنا نحن، إذن يطعمهم هم أيضًا، ليس مسؤوليتنا أن نطعمهم! وينسون أن الدنيا بنيت على البلاء، فهؤلاء اختبروا بهؤلاء، وأرزاق هؤلاء وهؤلاء من الله، لكن أنت يا صاحب المال ابتليت بمالك، يختبرك الله، تمتثل في مالك ما أمرك الله أو لا تمتثل؟

المقصد تركوا أن ينمّوا عقولهم بالدين والإسلام واليقين والآيات المتلوة والآيات المرئية وجعلوا عقولهم تحكم الأخبار التي تأتيهم، ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يقولون رزقنا الله إذن يرزقهم أيضًا!

فما أكثر عيب هذه العقول! ما أعظم عيبها، تستعمل الخبر الذي أخبرها الله به والأمر الذي أمرها الله به فيما يوافق الهوى، نعوذ بالله من الهوى.

هذا ما تيسّر ذكره من هذه السورة العظيمة، ولم ينتهِ منها المقصد وتحتاج إلى تقليب وفهم أكثر، نسأل الله عزّ وجلّ أن يحقّق لنا ذلك في أقرب وقت.